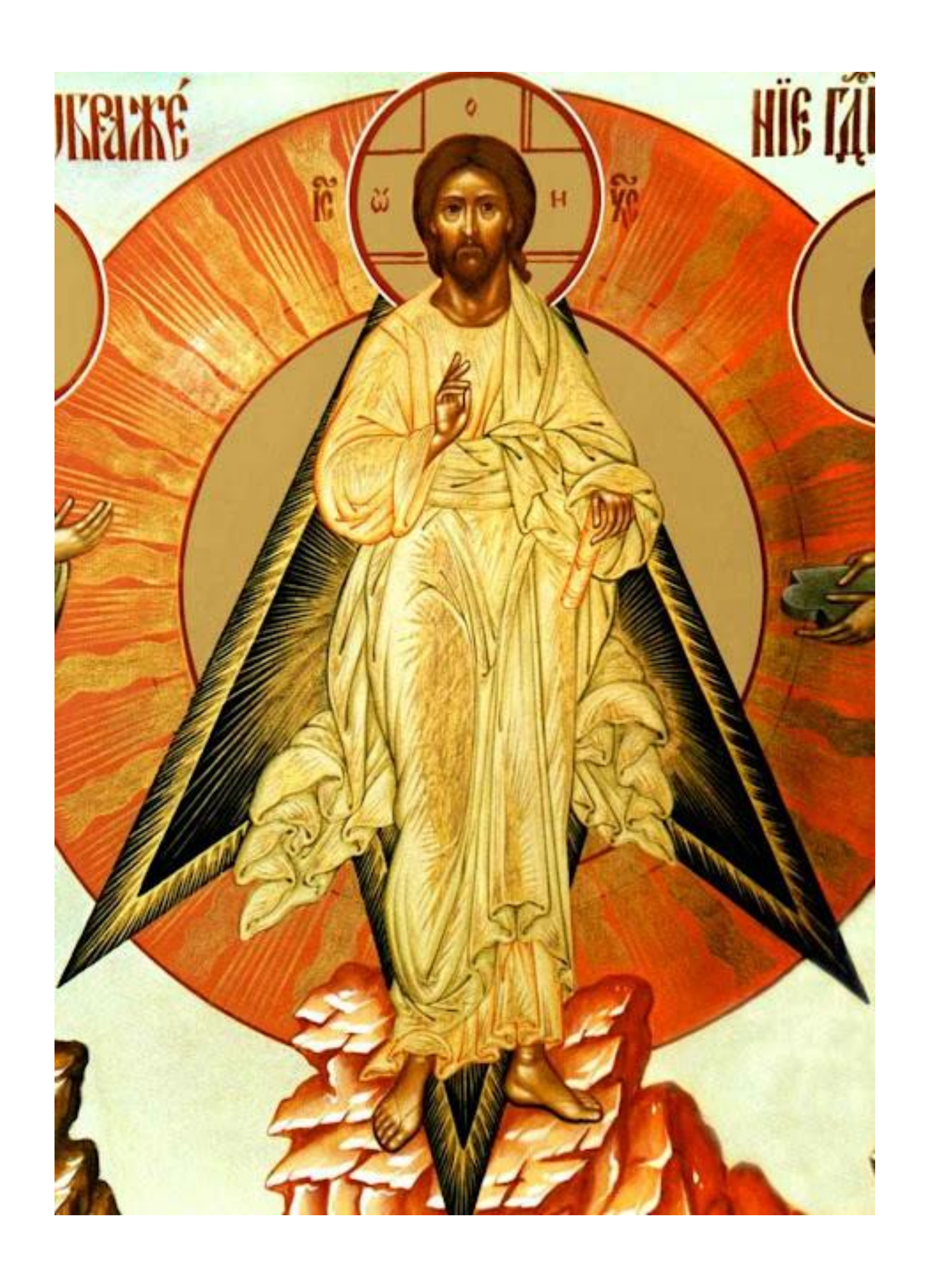


المجد غير المخلوق

غريغوريوس بالاماس

إن قصدنا هو أن ننقل التعليم عن نور النعمة، الذي للقديسين الموقرين منذ القديم، فحكمتهم تأتي من الخبرة، وقد أعلنوا أن تعليمهم "هو تعليم الكتاب المقدس". لذلك نقدم كلمات إسحق (السرياني) المفسر الأمين في هذا المجال، بمثابة تلخيص لكل الأقوال الأخرى: "إن لنفسنا حدقتين، كما يقوا جميع الآباء .. إلا أن النظر الخاص بكل منهما يختلف إستعماله عن الآخر، فبإحدى هتين الحدقتين نعاين أسرار الطبيعة، أعني قوة الله وحكمته وعنايته بنا، وندركها بفضل الجلال الذي يسوسنا به. وبالحدقة الأخرى نعاين مجد طبيعته المقدسة حين يرتضي الله إدخالنا إلى الأسرار الروحية"

ما دامتا حدقتين فما تبصران هو نور. ومادام لكل منهما قوة رؤية خاصة بها فهناك ثنائية في معاينة هذا النور، لأن كل حدقة تشاهد نوراً مختلفاً، لا تراه الحدقة الأخرى. وكما فسرَّ لنا القديس إسحق: النور الأول هو رؤية قوة الله وحكمته وعنايته، وبصورة عامة معرفة الخالق من خلال المخلوقات. أما النور الآخر فهو معاينة "مجد طبيعته"، - وليس معاينة الطبيعة الإلهية - الذي وهبه الرب لتلاميذه، وبواسطتهم لجميع الذين آمنوا به، وأظهروا إيمانهم بأفعالهم. هذا المجد أراد الرب بكل وضوح أن يعاينوه، إذ أنه قال للآب: "أيها الآب أريد أن ينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو 17). وأيضاً: "والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم".

هكذا فإنه قد أعطى الطبيعة البشرية مجد الألوهة لا مجد الطبيعة، إذ أن طبيعة الله شيء ومجده شيء آخر، وإن كانا لا ينفصلان. إلا أن المجد وإن كان مختلفاً عن الطبيعة الإلهية، فهو لا يمثَّل بالأشياء الخاضعة للزمن، لأنه في تساميه ليس بمخلوق، لأنه يخص الطبيعة الإلهية بصورة لا توصف.

إذاً،لم يهب الرب هذا المجد، المتسامي على كل الكائنات للمُركَّب البشري المتحد بأقنومه وحسب، بل أيضاً للتلاميذ، إذ يقول: "يا أبتاه، أنا قد اعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد، أنا فيهم وأنت فيَّ ليكنوا مكملين إلى واحد". ولكنه أراد أيضاً أن يعاينوا هذا المجد، هذا الذي نقتنيه في داخل أنفسنا، والذي بواسطته نعاين الله.

فكيف نمتلك ونعاين مجد الطبيعة الإلهية هذا؟ هل بتفحّص علل الكائنات، والسعي من خلالها لمعرفة قدرة الله وحكمته وعنايته؟ بل كما قلنا، أنها حدقة أخرى للنفس ترى كل هذا ولا تعاين النور الإلهي الذي هو "مجد الطبيعة" - بحسب كلمات القديس إسحق. فهذا النور يختلف إذاً عن النور الذي هو مرادف للمعرفة. وبالتالي، ليس كل من يقتني معرفة الكائنات - أو يعاين من خلال التأمل فيها - يكون الله ساكناً فيه، بل هو مجرد يقتني معرفة الكائنات، ومن خلالها يستنتج - عن طريق القياس - وجود الله. أما الذي يقتني ذلك النور ويعاينه بصورة سرية، فإنه يعرف الله ويقتنيه في ذاته، ليس بعد بطريق القياس بل في معاينة حقيقية، متسامية على كل الخلائق، إذ هو لا ينفصل أبداً عن المجد الأبدي.

ليتنا لا نتشكك غير مصدّقين هذه الغزارة الفائقة التي لتلك الخيرات، بل فلنؤمن بالذي اشترك في طبيعتنا، وأنعم علينا في المقابل بمجد طبيعته، ولنتقصَّ كيف نقتنيه ونعاينه.

كيف؟ بحفظ الوصايا الإلهية، لأن الرب قد وعد أن يظهر ذاته لمن يحفظها، ظهوراً دعاه "سكناه الخاص، وسكنى الآب"، قائلاً: "إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يو 14)،"وأظهر له ذاتي". ومن الواضح أنه يقصد بكلامه وصاياه، لأنه يذكرها قبلاً بدلاً من كلمة "كلامه" قائلاً: "الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني".

ونحن نعلم أيضاً أن حفظ الوصايا يعطي معرفة حقيقية، إذ به تتعافى النفس. فكيف يمكن للنفس العاقلة أن تكون متعافية إذا كانت ملكة الإدراك فيها مريضة؟ نحن نعلم إذاً أن وصايا الله تمنح أيضاً معرفة، وليس ذلك فقط بل أيضاً تألّه. نحن نقتنيه بشكل كامل، بواسطة الروح القدس، نعاين في ذواتنا مجد الله، عندما يرتضي الله أن يأتي بنا إلى الأسرار الروحية - كما أوضح القديس إسحق السرياني.

لكن لنسمع أيضاً ما قاله القديسون الآخرون الذين سبقوه عن مجد الله، ذلك المجد الذي يعاينه الأبرار بصورة سرية وخفية. لننظر أولاً لشهود العيان ورسل إلهنا وأبينا يسوع المسيح، "الذي منه تُسمى كل عشيرة"، في ملء الكنيسة المقدسة. لنسمع أولاً إلى قائدهم بطرس الذي يقول: "لأننا لم نتبع خرافات مصنّعة، إذ عرفناكم بقوة ربنا يسوع ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته" (2 بط 1). وليأت رسول آخر ليقول لنا ما هو مجد الرب يسوع هذا الذي شاهده عياناً: "لما

استيقظ بطرس واللذان معه رأوه مجده" (لو 9). أي مجد؟ فليأت إنجيلي آخر وليدلي أيضاً بشهادته: "وتغيَّرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس" (مت 17).
لقد أوضح لهم أنه عينه الإله الذي "يرتدي النور مثل الثوب" (مز 103) - حسب قول المرنم.
ولذا فإن بطرس بعد أن قال أنه عاين مجد المسيح على الجبل المقدس، وعاين النور الذي ينير - ويا للغرابة - الآذان ذاتها، (إذ أنهم عاينوا أيضاً سحابة منيرة دوّت منها أقوال) يستمر فيقول: "وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت" (2 بط 1).
يا معايني الله ما عساها تكون هذه الكلمة النبوية التي معاينة النور تأكدها لكم؟
ما عساها تكون إلا أن الله "يرتدي النور مثل الثوب".

ثم يكمل فيقول: "تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم إلى أن ينفجر النهار". أي نهار؟ النهار الذي ظهر على جبل طابور؟
"ويطلع كوكب الصبح"، أي كوكب؟ الكوكب الذي أضاء لبطرس هناك كما أضاء ليعقوب ويوحنا. وأين يشرق هذا الكوكب؟ يشرق "في قلوبكم"؟ ألا ترى كيف يشرق ذلك النور منذ الآن في قلوب المؤمنين والكاملين؟ ألا ترى كم هو أسمى من نور المعرفة؟ ليس النور الناجم عن الدراسات الهلينية هو المقصود، لأن هذا النور غير جدير حتى بأن يسمى نوراً، إذ ليس هو إلا كذباً أو ممتزجاً بالكذب، وأقرب إلى الظلمة من النور. في الحقيقة، إن نور تلك المعاينة يختلف عن المعرفة الآتية حتى من الكتاب المقدس نفسه، المشبّة "بسراج منير في موضع ومظلم"، في حين أن نور تلك المعاينة الميستيكية ممثلة بكوكب الصبح الذي يضيء في وضح النهار، أي في ضوء الشمس.
..... أما هذا الإيمان الحقيقي، الذي ينجم عن حفظ الوصايا، فهو لا يهب معرفة الله من خلال الكائنات فقط - سواء معروفة أو غير معروفة - (لأننا حينما نقول "كائنات" نفهم أنها مخلوقة)، بل من خلال النور غير المخلوق الذي هو مجد الله، مجد المسيح إلهنا، ومجد أولئك الذين يحققوا الغاية الأسمى بالتشبة بالمسيح.
لأنه في مجد الآب سوف يأتي المسيح ثانية، وسوف "يضيء الأبرار كالشمس" (مت 13) في مجد أبيهم المسيح. وسوف يكونون نوراً ويعاينون النور، مشهداً حلواً مقدساً، يقتنيه فقط

القلب المتطهر. إن هذا النور في الوقت الحاضر يضيء جزئياً، بمثابة عربون، للذين من خلال اللاهوى قد تجاوزوا كل ما هو كريه، وبالصلاة النقية غير الهيولية تجاوزوا كل ما هو نقي. لكن في اليوم الأخير، هذا النور سوف يؤله بشكل جلي "أبناء القيامة" (لو 20)، الذين سيتمتعون في الأبدية وفي المجد، في شركة مع ذاك الذي وهب طبيعتنا بمجد وبهاء إلهيين.

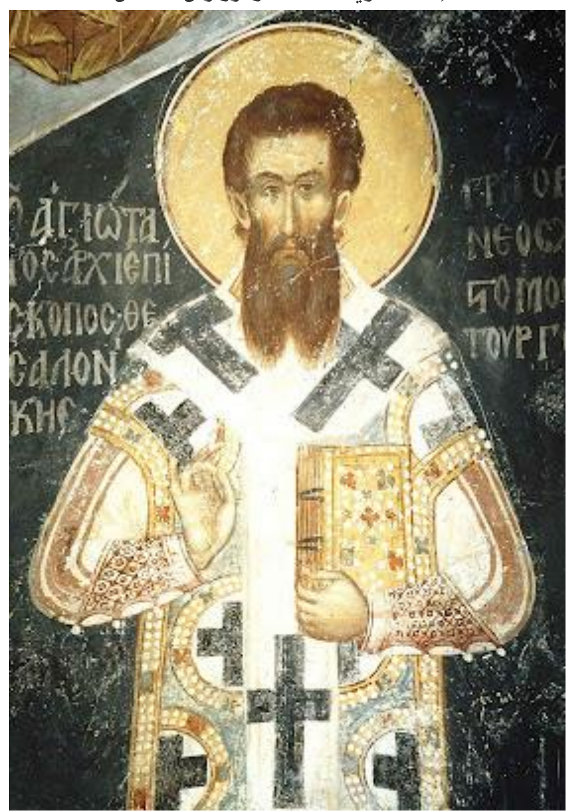
هذا المجد والبهاء ليس الجوهر - حتى في النطاق المخلوق - فكيف يمكن بالتالي أن يظن أحد أن مجد الله هو جوهر الله، جوهر ذلك الإله الذي مع بقاءه غير قابل للشركة وغير منظور وغير ملموس، يصبح قابلاً للشركة بقدرته الفائقة الجوهر، ويشرك ذاته ويشرق ويصير "روحاً واحداً" (1 كو 6) في المعاينة، مع أولئك الذين يقابلونه بقلب نقي، وفقاً للصلاة الميستيكية والسرية للغاية، التي وجهها عنا أبونا المشترك إلى أبيه؟ "ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا"، في الحق.

تلك هي معاينة الله التي سيعاينها فقط، في الدهر الذي لا نهاية له، الذين سيحسبون أهلاً لهذا التحقيق المبارك، والتي عاينها في الدهر الحاضر الرسل المختارون على جبل طابور، كما عاينها أيضاً استفانوس أثناء رجم اليهود إياه، وأنطونيوس أثناء صراعه من أجل السكون الداخلي، والقديسين أنقياء القلوب، كما نتعلم من أقوالهم المكتوبة وسيرهم. أنا أيضاً أؤكد أن الأنبياء والبطاركة لم يكونوا بدون خبرة هذا النور، بل كل رؤاهم - ماعدا البعض منها استثناء - خاصة الرؤى الإلهية، كان لها حصة في ذلك النور. فكيف لله أن يتشبه بنور آخر غيره، وهو ذو النور الأزلي الذي يعاينه - ولو بصورة سرية - أنقياء القلوب، في الوقت الحاضر، وفي الدهر الآتي على السواء.

المرجع: الدفاع عن القديسين الهدوئين، الثلاثية الثانية، للقديس غريغوريوس بالاماس، تعريب دير مار جرجس الحرف، منشورات التراث الآبائي (مأخوذ بتصرف وإعادة ترجمة).

Reference: Gregory Palamas, The Triads, Classics of Western Spirituality, Translated by Nicholas Gendle, Paulist Press.

الإتحاد السري بالله _ غريغوريوس بالاماس



الإتحاد السري بالله

القديس غريغوريوس بالاماس

إن نعمة التألّه تتجاوز إذاً الطبيعة والفضيلة والمعرفة، "فهذه كلها أدنى منها" (كما يقول القديس مكسيموس). فإن كل فضيلة وتشبّه بالله من جانبنا يجعلان من يمارسها مهيّأً للإتحاد الإلهي،

لكن الإتحاد السري ذاته تتمه النعمة. أنه بواسطة النعمة، "يأتي الله ليسكن بملئه في أولئك الذين حسبوا مستحقين" (مكسيموس)، والقديسون يسكنون بكل كيانهم في الله، مستقبلين الله في ملئه، وغير حاصلين على مكافأة أخرى لصعودهم إليه سوى الله ذاته.

"أن الله يلتصق بهم كما تلتصق النفس بالجسد، كما بأعضاءه الخاصة" (مكسيموس). وهو يستسيغ السكنى في المؤمنين بالتبني الحقيقي، وفقاً لعطية ونعمة الروح القدس. لذلك، عندما تسمع أن الله يسكن فينا بواسطة ممارستنا للفضائل، أو أنه يأتي ليقيم فينا من خلال الذاكرة، لا تظن أن التأله مجرد إقتناء الفضائل، لكنه يكمُن بالأحرى في سطوع نعمة الله، والتي حقاً تأتي إلينا من خلال الفضائل. كما يقول باسيليوس الكبير: "أن النفس التي كبحت دوافعها الطبيعية عن طريق النسك الشخصي وبمساهمة الروح القدس تتأهل - بحسب حكم الله العادل - للبهاء الموهوب للقديسين".

والبهاء الذي تمنحه نعمة الله هو نور، كما نتعلم من هذا القول: "أن البهاء المعطى للذين قد تنقوا هو نور، لأن الأبرار سوف يضيئون كالشمس، ويكون الله في وسطهم معيّنا وموزعاً لهم كرامات الغبطة والبركة، لأنهم آلهة وملوك".

إن هذه حقائق تفوق السماوات وتفوق الكون، لأنه من الممكن إقتبال النور الفائق للسماوات ضمن مواعيد الخيرات". وسليمان من جهته يقول: "النور يضيء للصديقين دائماً" (أم 13: 9)، وبولس الرسول يقول: "شاكرين الآب الذي أهلنا لشركة ميراث القديسين في النور" (كو 1: 12)

ولكننا نقول أن الإنسان يتحصل على الحكمة بالجهد والدرس، ألا أننا لا نقول أن الحكة ليست سوى جهد ودرس، بل هي نتيجتهما.

أن الرب يسكن في الناس بطرق مختلفة ومتنوعة، بحسب إستحقاق طالبيه وطريقة حياتهم. فهو يظهر بطريقة ما للإنسان العامل، وبطريقة أخرى للمتأمل، وبطريقة أخرى أيضاً للرائي، وبطرق أخرى مختلفة أيضاً للإنسان الغيور أو المتأله بالنعمة. هناك فروقات كثيرة في الرؤيا

الإلهية عينها. بعض الأنبياء عاينوا الله في الحلم، وآخرون في اليقظة بواسطة ألغاز ومرايا، ولكنه ظهر لموسى وجهاً لوجه لا في ألغاز.

ولكنك عندما تسمع عن رؤية الله وجهاً لوجه، تذكر قول مكسيموس: "إن التألّه هو الإستنارة المؤقنمة والمباشرة التي لا بداية لها، غير أنها تظهر في أولئك المستحقين بشكل يفوق الإدراك. أنه حقاً إتحاد سري بالله، يتجاوز كل عقل وكل إستدلال، في الدهر الذي لا تعود الكائنات تعرف فيه الفساد. هذا الإتحاد الذي بفضله يصير القديسون بمعاينتهم نور المجد الخفي الذي لا ينطق به قادرين على إقتبال النقاوة المباركة، مع القوات السماوية. أنه أيضاً الإبتهال للإله العظيم والآب، رمز التبني الحقيقي والأصيل، وفق عطية ونعمة الروح القدس، التي يصبح القديسون بفضلها أبناء الله بهبة النعمة ويدومون فيها".

إن ديونيسيوس العظيم الذي يسمي ذلك النور "شعاع إلهي فائق الضياء"، يسميه أيضاً "عطية مؤلهة ومبدأ الألوهة" أي مصدر التأله. وقد سأله أحد كيف يفوق الله الرئاسة الإلهية (أي مبدأ الألوهة عينه)، فأجاب: أنت قد سمعت أن الله يدع ذاته يُرى وجهاً لوجه لا في ألغاز، وأنه يلتصق بأولئك المستحقين كالتصاق النفس بالجسد، بأعضائها الخاصة، وأنه يتحد بهم حتى أنه يأتي ويسكن فيهم بالتمام، لكي يسكنون هم أيضاً فيه بالكلية، لأنه بواسطة الابن ينسكب الروح علينا بغنى (تي 3: 6) - لا كشيء مخلوق - وأننا نشترك فيه، وأنه يتكلم من خلالنا. أنت تعرف كل هذا. لكن يجب أن لا تعتبر أن الله يدع ذاته يُعاين في جوهره الفائق الجوهر، بل بمقتضى العطية المؤلهة وقوتها، بحسب نعمة التبني والتألّه الغير مخلوق والإستنارة المؤقنمة. يجب أن تعتبر أن هذا هو مبدأ الألوهة، العطية المؤلهة، التي بموجبها يمكن للإنسان أن يتصل بالله بصورة فائقة الطبيعة وأن يراه وأن يتحد به. لكن جوهر الله الفائق المبدأ يتجاوز هذا المبدأ أيضاً.

هذه النعمة هي في الحقيقة علاقة، وإن لم تكن علاقة طبيعية، إلا أنها في نفس الوقت تفوق العلاقة، ليس فقط بكونها فائقة الطبيعة بل أيضاً لكونها علاقة: إذ كيف لعلاقة أن تكون لها علاقة؟ أما جوهر الله فليس له علاقه، هو ليس كعلاقة بل يسمو ويفوق سائر العلاقات

الفائقة الطبيعة عينها. إن النعمة تُعطى لجميع المستحقين لها، بطريقة خاصة وملائمة لكل منهم، في حين أن جوهر الله يسمو على كل ما هو قابل للمشاركة.

....

عندما تسمع الكلام عن قوة الله المؤلهة ونعمة الروح الإلهية، لا تنشغل بالبحث أو تسعى لمعرفة لماذا هي كذا أو كذا وليست شيء آخر. لأنك بدونها لا تقدر أن تتحد بالله، كما يقول الآباء الذين تحدثوا عنها. عليك بالأحرى أن تلازم الأعمال التي ستسمح لك ببلوغها، وعندئذ سوف تعرف على قدر إمكانك، إذ لا يعرف أحد قوى (طاقات) الروح القدس إلا من تعلّم عنها عن طريق الخبرة، حسب باسيليوس الكبير. أما بالنسبة للشخص الذي يبحث عن المعرفة قبل الأعمال، فإن كان يثق بمن لهم الخبرة فإنه يحصل على صورة ما عن الحقيقة. ولكنه إذا حاول أن يتصورها بذاته، يجد نفسه إنه قد حُرِم حتى من صورة الحقيقة. ومن ثم ينتفخ بالكبرياء كما ولو أنه قد أكتشفها، وينفث غضبه على رجال الخبرة كما لو كانوا في الضلال. فلا تكن إذاً فضولياً بزيادة بل اتبع رجال الخبرة بأعمالك، أو على الأقل بأقوالك، مكتفياً ببوادر النعمة الخارجية.

التأله في الحقيقة هو فوق كل اسم. ولهذا نحن الذين كتبنا كثيراً عن الحياة الهدوئية، لم نتجاسر أن نكتب عن التأله. ولكننا اليوم نتكلم لوجود ضرورة بأقوال التقوى - بنعمة الله - غير إنها أقوال غير كافية لوصفها. إذ أن التأله يبقى فائق الوصف، وإن عُبر عنه بالكلام، ويمكن أن يُعطى له اسماً فقط بواسطة أولئك الذين اقتبلوه، كما يعلم الآباء

.....

لا يجب إذاً مساواة عطية الروح المؤلهة بجوهر الله الفائق الجوهر. فهي القوة المؤلهة للجوهر الإلهي، إلا أنها ليست تمام هذه القوة، وإن كانت لا تتجزأ في ذاتها. حقاً أي مخلوق يمكنه إقتبال تمام قوة الروح غير المحدودة، سوى ذاك الذي حُمل في بطن العذراء، بحلول الروح القدس وقوة العلي التي ظللته. فهو قد اقتبل "كل ملء اللاهوت جسدياً" (كو 2)

أمّا بالنسبة لنا، فمن ملئه نحن جميعاً أخذنا (يو 1). فجوهر الله هو في كل مكان، لأن "روح الرب يملأ المسكونة" (حك 1: 7) بحسب الجوهر. التألّه أيضاً هو في كل مكان حاضراً في الجوهر بصورة لا توصف، وغير منفصل عنه، كقوته الطبيعة.

ولكن كما أنه لا يمكن رؤية النار، في غياب مادة تقبلها، أو أي عضو قابل لمعاينة قوتها المنيرة، كذلك أيضاً لا يمكن معاينة التألّه في غياب مادة مهيأة لاقتبال الكشف الإلهي. ولكن عندما يُرفع كل برقع تُهيئ مادة مناسبة - أي طبيعة عاقلة مطهرة لا تحجبها الرجاسات المختلفة - تصير هي نفسها منظورة (من الناس) كنور روحي، أو بالأحرى تحوّل الناس إلى نور روحي.

لقد قيل: "أن جزاء الفضيلة هو أن نصير آلهة، أن نستنير بالنور الأُكثر النقاوة، أن نصير أبناء ذلك النهار الذي لا تعتمه أية ظلمة. لأن الشمس التي تنتج هذا النهار هي شمس أخرى، شمس تشرق النور الحقيقي. ومتى أنارتنا لا تعود تختبئ جهة الغرب بل تُغلّف كل شيء بقوتها المنيرة. وتهب من هم أهل لها نوراً أبدياً لا نهائياً، وتحول أولئك الذين يشتركون في هذا النور إلى شموس أخرى". عندئذ بالحقيقة "يضيئ الأبرار كالشمس" (مت 13). أية شمس؟ بالتأكيد هي تلك التي تظهر الآن لمن هم أهل لها، كما فعلت آنذاك.

ألا ترى أنهم سوف يكتسبون نفس الطاقة التي لشمس البر؟ لذا فإن آيات إلهية مختلفة وحلول الروح القدس يتم بوساطتهم. فإنه قيل "كما أن الهواء الذي يحيط بالأرض إذا ما دفعته الريح إلى فوق يصير مضيئاً لأنه يتحول بصفاء الأثير، كذلك الروح البشرية التي تعتزل هذا العالم الموحل والقذر، تصير مضيئة بقوة الروح وتمتزج بالصفاء الحقيقي الأسمى، وتلمع في هذا الصفاء، وتصير مشعة كلياً، وتتحول إلى نور، حسب وعد السيد، الذي سبق قال أن الأبرار سوف يضيئون كالشمس.

إننا نرى الظاهرة نفسها على الأرض من خلال مرآة أو سطح ماء، فإنهم باقتبالهم شعاع الشمس ينتجون من أنفسهم شعاعاً أخر. ونحن أيضاً إذا ما أرتفعنا، تاركين الظلال الأرضية، نصير مضيئين، بالاقتراب من نور المسيح الحقيقي. وإذا نزل إلينا النور الحقيقي الذي يضيء في الظلمة، نصير نحن أيضاً نوراً، كما قال السيد لتلاميذه.

هكذا فإن عطية الروح المؤلهة هي نور سري، وهي تحوّل الذي يقتبلون غناها إلى نور. أنها لا تملأهم فقط نوراً أبدياً، بل تمنحهم معرفة وحياة تليق بالله. هكذا فإن بولس لم يكن بعد يحيا حياة مخلوقة، بل "حياة أبدية ذاك الذي سكن فيه" (بحسب مكسيموس).

المرجع: الدفاع عن القديسين الهدوئين، الثلاثية الثالثة، للقديس غريغوريوس بالاماس، تعريب دير مار جرجس الحرف، منشورات التراث الآبائي (مأخوذ بتصرف وإعادة ترجمة).

Reference: Gregory Palamas, The Triads, Classics of Western Spirituality, Translated by Nicholas Gendle, Paulist Press.

http://erinipasy.blogspot.com/